الأمة العربية قبل الاستعمار

بقلم

محمد عطا

(١)

لم تكن الأمة العربية حديث التاريخ حتى خرج منها محمد عليه السلام بدعوته ؛ هذه الدعوة التى لم تكن مقصورة على أمة العرب فحسب بل تجاوزتها إلى الأمم جميعاً (وما أرسلناك إلا كافة للناس) .

وقد أراد الله أن تكون شبه الجزيرة العربية منبثق الدين الجديد — والنبع الذى يتدفق منه ؛ لم ؟ . . لأن هذه البقعة قريبة من البقع الطاهرة التى خرج منها موسى ثم عيسى من بعده ؛ من الشرق مهد الأديان ، وموطن الرسالات ومصدر الوحى والإلهام .

ولأن البلاد الأخرى كانت ترزح تحت نير من الاضطراب والبغى والفساد .

ولأن هذا المكان بالذات فيه تطلع إلى المعرفة وإلى التحرر من دين الوثن الضيق الأفق .

ولأن هذه الجماعات القبلية كانت تتشوف إلى الخروج من الحياة القبلية إلى حياة الجماعة الواحدة . . إلى الأمة — ولن تتمكن من هذه الوحدة إلا إذا اجتمعت على كلمة سواء ، ولن يهيئ لها هذه الكلمة إلا رجل منها ؛ رجل يحررها من عبادة الوثن إلى عبادة الله الحقة .

وقد كان هذا الرجل هو محمد بن عبد الله .

والرسالة التى طلع على قومه بها وكانت للناس كافة ؛ رسالة تحمل فى طياتها الخلود لأنها جمعت بين الدين والدنيا ؛ رسالة لصالح المجموع لا لصالح قبيلة بعينها أو أمة بذاتها ؛ رسالة فيها مرونة وفيها محبة وفيها سلام .

رسالة يجتمع عليها الناس ويجدون فيها المخرج من آلامهم ومتاعبهم .

رسالة لا تجنح إلى العنف ولا تميل إلى اللين بل جمعت بين بين .

رسالة آمن بها الموالى قبل أن آمن العرب .

رسالة تصلح لكل بيئة ولكل زمان بما طبعت عليه من سعة وتحرر ومرونة .

رسالة من يؤمن بها لا يتخلى عنها مهما يفتن أو يقهر أو يجاهد عليها .

رسالة تجمع بين معتنقيها ولا تفرق بينهم سواء فى الحرب أو فى السلام ، فى السراء أو الضراء .

وهذا هو السر فى أن الأحداث الجسام التى مرت بالعالم الإسلامى والحروب المتصلة بين الإسلام وغيره من الأديان لم تنل من هذا العالم شيئاً بل على العكس قد قوت منه وزادته استمساكاً بعقيدته .

هذه حقيقة كبرى نهديها اليوم إلى عالمنا الغربى الذى لم يفهم بعد

مبلغ عقيدة الشعوب الإسلامية ومدى تواصلها على الرغم من المحاولات المتصلة الدائبة لتقطيع أوصاله ، والإتيان على معالمه وتقويض بنيانه .

وهذه الحقيقة الكبرى لم نرسلها إرسالا ولكنها حقيقة التاريخ الذى يوافينا بها ، والتاريخ أصدق لسان ، وأقوى بيان .

(٢)

لقد اصطدم الإسلام بالصليبية اصطداماً سافراً فى أخريات القرن الحادى عشر (١٠٩٩ م) — وانتصرت الصليبية حتى سنة ١١٤٤ م حيث استطاع عماد الدين زنكى قهر الصليبيين وردهم عن أمارة الرها أقوى معاقلهم فسنة ١١٧٤ م حين ولى أمر مصر البطل الإسلامى صلاح الدين الأيوبى الذى أخذ على عاتقه أن يعيد للإسلام قوته وأن يدفع هذه الجحافل الغازية وأن يردها إلى ديارها وليبقى للمسلمين عزهم ومجدهم ؛ وشاء أن يبدأ معركة من أشهر معارك التاريخ هى معركة « حطين » فى الثالث من شهر يوليو سنة ١١٨٧ م وظلت رحاها دائرة يومين انتهت بانتصار صلاح الدين وكانت معركة فاصلة بين الإسلام والصليبية انهارت الصليبية بعدها فى الشرق العربى وأصبح خالصاً لأبنائه .

هذه الحروب الصليبية قد خلفت آثاراً عميقة فى نفوس الشرقيين والغربيين والتى تجددت فيما بعد بصورة أو بأخرى .

والدارس لتاريخ هذه الحروب يرى مبلغ تعصب هؤلاء الصليبيين وتدميرهم للبلاد التي فتحوها وإذلالهم لأبناء هذه البلاد والعمل على تحطيم معنوياتهم والتنكيل بالألوف المؤلفة منهم فى غير شفقة أو رحمة .

وفى الوقت ذاته يرى مبلغ تسامح المسلمين وعفوهم حتى أصبح هذا التسامح مدار قصص يروى ، وحديث يؤثر .

ولقد قدمت هذا الحديث لأذكر — فإن الذكرى تنفع المؤمنين — بأن الأمة العربية إذا غلبت على أمرها سنوات فإنها لا تلبث حتى تستجمع قواها وتسترد صلابتها ولو اجتمع عليها أهل الأرض قاطبة .

فالصليبيون فى زحفهم على الشام كانوا قرابة مائة وعشرين ألفاً تمدهم بالعتاد والمال دول أوربا الغربية والشرقية ، واستطاع صلاح الدين بالقوات المصرية والشامية أن يقهر هذه الجموع .

استطاع صلاح الدين ذلك معتمداً على قواته هو أى أنه دافع عن هذه المنطقة دفاعاً منبثقاً منها لا خارجاً عنها .

واعتمد صلاح الدين على القوة الروحية الكامنة فى الشعب العربى المناضل .

وهذه حقيقة أخرى ينبغى أن يتفهمها كل عربى وكل غربى .

* * *

وحدث هذا فيما بعد حين أغارت جموع التتر بقيادة القائد كتبغا (Kitbuqha) على الشام ونهض لملاقاتها القائد بيبرس بالقوات المصرية والشامية أيضاً فاستطاع بعد قتال مر أن يهزم القوات المغيرة فى المعركة

الفاصلة معركة عين جالوت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م وقد كان الانتصار فى هذه المعركة على جحافل التتر انتصاراً رائعاً أبقى على التراث الإسلامى ووحد بين الدولتين العربيتين الكبيرتين مدة قرنين ونصف من الزمان .

إن هذه الجموع التترية التى هزمت قوات الخلافة العباسية وأسقطت فى قبضتها مدينة بغداد عاصمة العباسيين قد تحطمت على صخرة المقاومة المصرية والشامية وارتدت على أعقابها بعد أن وصمت بعار الهزيمة والاندحار .

ولم يعتمد فى هذا الدفاع بيبرس أو قطز على قوات خارجية بل اعتمدا على قوات المنطقة ذاتها .

(٣)

قد يرى بعض الأغرار أن الاتفاقات العسكرية بين المملكة العربية السعودية والأردن والشام ومصر واليمن من وحى هذا العصر ؛ وأن هذه الاتفاقات غير كافية للدفاع عن المنطقة ، وأن الأحرى أن تعتمد على أحلاف خارجية أو قوى عسكرية أجنبية ولكن صفحات التاريخ تروى غير هذا الذى يراه بعضهم .

فمنذ الفتوح الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب وهذه الدول تتبع سياسة واحدة ويسيرها هدف واحد فقد ظلت كذلك فى عهد عثمان وعلى

وكذلك فى عهد الدولة الأموية العربية الصميمة وكذلك فى عهد الخلافة العباسية أو الدولة الإسلامية الموحدة فما أن انقسمت هذه الدولة إلى دويلات بفصل العصبية القبلية التى اشتدت حين ضعفت الحكومة المركزية فى بغداد واستخدم الخلفاء العناصر الأجنبية الفارسية والتركية التى زادت أطماعها بعد استئثارها بالسلطة وفعلت القوميات فعلها فى الانفصال والاستقلال بنفسها حتى تيقظت هذه الشعوب ذات الحضارات العريقة ولكنها مع هذا التيقظ كانت تحكم حكماً واحداً ؛ كانت كذلك فى العهد الطولونى وفى العصر الفاطمى والأيوبى وفى عهد المماليك حتى الفتح العثمانى .

وفى خلال هذه الفترة كانت هذه الدول تنتهج سياسة موحدة ولم تنفصل هذا الانفصال الظاهرى إلا فى خلال الاستعمار الغربى .

إن مصر فى كل عصورها كانت تؤمن دائماً حدودها ضد الغارات المغولية أو التركية أو الهجرات المختلفة من آسيا وأوربا باتحادها مع الشام ووقوفهما أمام الخطر الداهم يناضلان عن كيانهما وكيان الأمة العربية التى أخذت تنوشها السهام من كل مكان وبخاصة فى أيام ضعفها وانحلالها .

* * *

وكانت هذه الدول تنحو نحواً واحداً ؛ لأن العنصر الغالب فيها هو العنصر العربى فالقبائل العربية كانت غالبة فى الشام وفى المملكة

السعودية وفى الأردن قبل الفتح العربى ، أما فى مصر فقد كانت هناك هجرات متتابعة إلى مصر فما أن كان الفتح الإسلامى أو انتشار الاسلام فى مصر حتى امتزج العرب الوافدون بسكان مصر بالمصاهرة والاختلاط حتى غلب الجنس العربى وأصبحت له السيطرة والنفوذ .

وهناك أمر آخر وحد بين هذه الدول إلى جانب العقيدة هو وقوعها فى فلك واحد فالجوار له أثره البعيد فى التقريب والارتباط الوثيق ؛ وتعرضها جميعاً لأخطار الغزو والفتح مما يدعوها — وهى المتجاورة — إلى أن تنهض معاً لمجاهدة هذه الغزوات ودفع المد الزاخر إلى ما وراء حدودها .

إن على ثرى أرض الشام (سوريا — لبنان — فلسطين) دماء مصرية غالية أريقت وهى تدافع عن القضية المشتركة وعن الأهداف العربية الموحدة .

وهذه الدماء عزيزة علينا نذكرها ونذكر ثراها ونحيى أرضها الزكية الطاهرة .

هذه الذكرى تقرب بين القلوب وتتسامى بالنفوس وتتعالى على الخلافات العصبية والفوارق المذهبية .

ويحكم هذا الرباط الثقافة الموحدة ؛ فعلماء مصر وأدباؤها وأعلامها وكتابها وكتبها وصحفها كلها ذات أثر بعيد الغور فى توثيق الصلات ، فمحمد عبده قد ظل أمداً يدرس فى معاهد الشام ومساجدها ، والأساتذة المصريون يروحون ويغدون بين حين وآخر ، والكتب المصرية وكذلك الصحف تزحم المكتبات ودور النشر هناك .

وبالتالى تقوم الصحف الشامية والكتب والأساتذة بدور خطير فى

نشر الأفكار والآراء وتبادلها بين أبناء قطرين تجمعهما وشائج القربى والمودة .

إن الثقافة الموحدة ركن من أركان الألفة والأخوة ووحدة الهدف والغاية .

(٤)

ولننتقل الآن إلى الأمة العربية بعد أن وهنت قوى « الرجل المريض » لنرى المحاولات التى بذلت لتتوحد ، والمؤامرة الاستعمارية التى حيكت ودبرت لتفرق بينها وتباعد بين أبنائها .

لقد أخذت الدول الأوربية تقاوم مقاومة عنيفة القوات التركية فى أوربا الشرقية وتدفعها دفعاً إلى الوراء . . إلى محيطها الضيق فى آسيا .

وبدأت هذه الدول وبخاصة الكبرى منها تعمل على تقطيع أوصال هذه الإمبراطورية الإسلامية ؛ فإنجلترا تحاول أن تؤمن طريقها إلى الهند وأن تستولى على قناة السويس ، وروسيا تعمل على أن تمزق تركيا كل ممزق حتى تجعل لها منفذاً إلى الشرق الأوسط والبحر المتوسط ، وفرنسا تنافس كلا منهما فى الاستيلاء على مصر والشام كما فعلت فى عهد نابليون وقيادته للحملة الفرنسية على مصر .

رأت تركيا أنها أصبحت كسفينة فى بحر هائج تنوشها الريح العاصفة من كل جانب والموج يتربص بها فى كل لحظة فلم تجد بداً من أن

تستعين بولاتها لدرء هذه الأخطار عنها فاستعانت بواليها محمد على فى حرب المورة حيث صادفت القوات المصرية نجاحاً فى احتلال كريت ثم إخضاع المدن اليونانية ولما رأت إنجلترا أن نجم القوات المصرية فى صعود تدخلت بأسطولها الضخم وعملت إلى تحطيم الأسطول المصرى كما هو معروف فى معركة (نفارين) .

ولكن مصر لم تهن عزيمتها فعند ما اجتمعت كلمة الدول الكبرى على استقلال اليونان وعادت قواتها إلى أرض الوطن أخذت تتطلع إلى وحدة عربية شاملة وبخاصة بعد أن شهدت ضعف تركيا وتزعزع مكانتها ولو أن تركيا فى ذلك الوقت ساعدت مصر على تكوين هذه الوحدة لما استطاع الاستعمار — على طغيانه — أن ينال من القومية العربية منالا ، إن مصيره كان مصير الحملات الصليبية فى الشام والإنجليزية فى رشيد والفرنسية فى مصر .

لقد تمكنت القوات المصرية من أن تهزم القوات التركية وأن تقف على أبواب القسطنطينية ولكن الدول الكبرى وبخاصة إنجلترا قد وقفت لها بالمرصاد وأرادتها على أن تعود مرة أخرى إلى مصر حيث تنكمش فيها حتى تصبح معزولة فيسهل التغلب عليها واستعمارها .

إن إنجلترا قد ألبت الدول الكبرى فى ذلك الحين (روسيا — النمسا — فرنسا — بروسيا) على القوات المصرية المنتصرة التى بلغت قوتها وفتح الطريق أمامها إلى القسطنطينية لأنها رأت أن دما جديداً قد تدفق وأن الأمة العربية ستأخذ مكانها القديم قوة وتماسكاً ، وفى هذا الخطر كل

الخطر على خططها الاستعمارية التى كانت تمهد لها آنذاك .

وإنجلترا لم تكتف بما اتفق عليه من أن تكون سوريا ومصر دولة موحدة وأن تنسحب القوات المصرية من الأرض التركية بل إنها أمعنت فى التضييق على مصر فى سنة ١٨٣٩ م بعد انهزام الاتراك فى موقعة « نصيبين » أمام الجيش المصرى وموت السلطان محمود ومحاولة الأتراك إنقاذ ما يمكن انقاذه من البلاد التركية التى أخذت الدول الكبرى تلتهمها جزءاً فجزءاً بأن تضم أسطولها إلى الأسطول المصرى وأن تدع الفرصة للعرب والمصريين ليدافعوا عن الأمة الإسلامية .

إن إنجلترا أكرهت مصر إكراهاً بعد تهديدها بضرب الإسكندرية بأسطولها على أن ترد الأسطول التركى ، وأن تجلو عن سوريا ليس هذا فحسب بل أن تظل مصر على تبعيتها لتركيا وإمعاناً فى إذلال مصر عليها أن تؤدى الجزية السنوية إلى تركيا .

إن إنجلترا فعلت ذلك لتبقى على الرجل المريض من ناحية وتهدف بهذا إلى وقف تدفق القوات الروسية على الشرق الأوسط ، ولتعمل من ناحية أخرى على تحطيم القوة الجديدة المتدفقة من وادى النيل ، وانتهاز الفرصة لوضع قدمها فى الشرق الأوسط بعد اثنين وأربعين عاماً من معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م .

بل إن إنجلترا أخذت تمهد للاحتلال حين شُقت قناة السويس وعملت على إرباك الميزانية المصرية لتهيئ لنفسها التدخل بحجة إقرار الأمن حين قامت الثورة العرابية .

إن سياسة إنجلترا فى الشرق العربى قامت على المؤامرات الاستعمارية وشراء الذمم بالأموال والتهديد باستخدام القوة وبذر بذور الفوضى والاضطراب عن طريق جواسيسها وعملائها .

لقد انتهى بها الأمر إلى احتلال مصر ثم انتهزت الفرصة بعد قيام الحرب العالمية الأولى وانضمام تركيا إلى ألمانيا إلى أن تستولى على ما تبقى للعثمانيين من بلاد فى الشرق العربى وأن تتفق مع فرنسا على احتلال سوريا ولبنان كل هذا فعلته لتقطيع أوصال الأمة العربية .

(٥)

ويجدر بنا فى هذا الفصل الذى عقد عن الأمة العربية قبل الاستعمار أن نفرد بالحديث مشروع « الجامعة الإسلامية » الذى دعا إليه السلطان عبد الحميد وجعل داعيته الأول جمال الدين الأفغانى .

إن هذا المشروع ما أقيم إلا للإبقاء على الدولة العثمانية التى كانت تعالج سكرات الموت وتراش إليها السهام من كل جانب .

والجامعة الإسلامية تقابل الجامعة العربية وهو مشروع محمود لأنه يقوم على لم شمل الدول الإسلامية جميعاً كالأمر فى أول قيام الدعوة الإسلامية ولكن المشروع لم يقدر له النجاح لماذا ؟ . .

لأنه لم يكن خالصاً لوجه الدعوة الإسلامية ولأن الدولة العثمانية كانت قد أنهكت قوى الدول العربية ، وخلفتها على شفا الهاوية وأقامت حزازات

تركت كاوداً لا تتدمل وقلوباً تغلى بالحقد والمرارة ، ولأن لواء الإسلام يخفق على دول شتى ، مترامية الأطراف بعيدة المنأى فمن العسير أن تجتمع على سياسة موحدة ليس هذا فحسب بل إنها تضم أجناساً شتى وحضارات قديمة متباينة .

وفى يقينى ويؤيدنى شواهد التاريخ أن الجامعة العربية إذا توحدت أهدافها السياسية كانت خط الدفاع الأول والمكين للإسلام والحفاظ عليه ؛ لقد كان مركز الدولة الإسلامية الحجاز فالشام فالعراق فمصر ثم تركيا ، وفى تركيا اتخذت طابعاً محلياً ومن هنا كان ضعفها وانتهاز الدول العربية الفرصة للإفلات من هذا الرباط الواهى .

على أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لم تدم طويلا إذ ظهرت الدعوة فى حزب (تركيا الفتاة) إلى التخلى عن فكرة الجامعة الإسلامية ومن هنا نرى أن تركيا لم تكن مؤمنة فى قرارة نفسها بدعوتها إلى الجامعة الإسلامية ، ثم شاءت أن تسير فى خطة التحرر من الارتباط بالعروبة وإلى أن تكون دولة علمانية .

مثل هذه الدولة لن تستطيع اليوم أن تحمل علم الدفاع عن الجامعة العربية أو إنفاذ مشروع الجامعة الإسلامية .

ليس من غايتى فى هذا البحث أن أتحدث عن القومية العربية اليوم وإنما أترك تكملة هذا الحديث لمن حملوا عنى عبء المضى فيه فإلى قريب .